

الروح الديني لاتجاهات الرثاء في العصر الإسلامي (دراسة وصفية)

Religious Spirit, lamentations trends in the Islamic Era(Descriptive Study)

الدكتور عبدالمجيد البغدادي

الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد

الدكتور غلام أحمد

الأستاذ المساعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة الكلية الحكومية، فيصل آباد

Abstract

Era of Sadr al-Islam is that period extending from the mission of the Prophet Muhammad, may God bless him and grant him peace, until the last days of the Rightly-Guided Caliphs, which ended with the killing of the Emir of the Believers, the Caliph of Islam and Muslims, Ali Ibn Abi Talib, may God be pleased with him, in the year 40 of the Hijrah, and the lament remained a poetic purpose in That era, however, a new doctrine was introduced to it with a situation. The linguistic meaning of the lament is related to the deceased is originally a source of the verb (lamentable), so the deceased is said to be lamentable, his praise after death. Lamentation is a term in which the ancient Arab poets mean the benefits and effects of the deceased. As for the modernizers, they have praise for the deceased and the abundance of his traits. Dr. Muhammad Al-Moneim Al-Khafji says defining the lament is the crying and mourning of the dead and the display of agony for his separation and the sadness of his death during which he promised the generosity that the enemies take care of losing and praising his manners.

Keywords: Sadr al-Islam, Ali Ibn Abi Talib, Caliph, lament, Arab poets, Moneim Al-Khafji.

المدخل: معنى الرثاء لغة واصطلاحاً

يرتبط المدلول اللغوي للرثاء بالميت وهو في الأصل مصدر للفعل (رثى)، فيقال رثيت الميت رثياً، و رثاء، و مرثاة، و مرثية، مدحته بعد الموت، و بكيته، و رثوت الميت اذا بكيته و عددت محاسنه، و كذلك إذا نظمت فيه شعراً و رثت المرأة بعلها، ترثيه و رثيته ترثاه رثاية فيهما.¹ و حكي في لغة، رثى يرثي من الرثية، و الرثية بالفتح: وجع في الركبتين والمفاصل وقال ابن سيدة: وجع المفاصل و اليدين و الرجلين، و قيل وجع في القوائم و قيل وجع و ظلاع في القوائم و قيل كل ما منعك الالتفات من كبر أو وجع أو ضعف، وقال رؤية فشدد²:
فإن تريني اليوم ذا رثية.

و يقول ابن فارس بأن الرء والثاء والحرف المعتل أصيل على رقة وإشفاق، يقال رثيت لفلان، و من الباب قولهم رثي الميت بشعر، و من العرب من يقول: رثأت وليس بالأصل، أما الأصل الثاني فهو بالألف الممدودة المنقلبة عن واو يرثو مرثوة من الرثو، و رجل مرثو ضعيف الوأد، قليل الفطنة، و أما الأصل الثالث فهو رثاء بالهمزة يرثأ رثيئة، ويقال الرثية أن يخلط اللبن الحامض بالحلو³، و يقول ابن منظور "رثأ يرثو رثأ، خلطه، و قيل: رثأه صيرة رثيته أرثأ اللبن: خثر، في بعض اللغات، و رثأ القوم لهم، عمل لهم رثيته، ويقال في المثل: الرثية، تفثأ الغضب أي تكسر و تذهب.⁴ و رثأت الرجل: مدحته بعد موته، لغة في رثيته و رثأت المرأة زوجها، كذلك وهي المرثية، و قالت امرأة من العرب رثأت زوجي بأبيات و همزت، أرادت رثيته.

قال الجوهري: و أصله غير مهموز، قال الفراء: و ربما خرجت بهم فصاحتهم -يعني العرب- إلى أن يهمزوا مالميس بمهموز، فقالوا: رثأت الميت و لبأت بالحج⁵.

أما السيوطي فعده من الغلط في كتابه المزهري⁶ و قيل رثاه (بتشديد الثاء) مخصوص بالمدح و من دون تشديد مخصوص بالبكاء، و قيل: امرأة رثاء وثاية أي كثيرة البكاء و الرثاء لبعلاها و لمن يكرم عندها. و لذا لما نرى في هذه المادة نقول: إننا نجد أن الضعف و العجز في الهمة و رخاوة الأعضاء--- كل ما يعني الانهماك والضعف نرى في المعاني الحسية الملموسة للأصول الثلاثة (رثاء، رثي، رثأ).

أما الرثاء اصطلاحاً فيعني شعراء العرب الأقدميين محاسن الميت ومآثره، و تعداد محاسنه و مناقبه بدون أي مبالغة و تجاوز من حد الاعتدال⁷. أما المحدثين فعندهم هو ثناء على الميت و ذخر صفاته التي اشتهر بها في حياته من كرم وجود و شجاع، و إظهار اللوعة و التحسر تجاه من فقدوهم من الأهل والأقارب والحبيب والسلطان وما إلى ذلك. و يقول الدكتور محمد المنعم الحفاجي بتعريف الرثاء هو بكاء الميت و التفجع عليه و إظهار اللوعة لفراقه والحزن لموته وعد خلاله الكريمة التي يروع الأعداء فقدها والإشادة بمناقبه⁸.

و عرف الأستاذ منذر الجبوري قائلاً: هو بكاء الأعزاء من الموتى والتأسي عليهم والتوجع لمصائبهم⁹. فيمكننا القول إن الرثاء هو صناعة الشعر في الموتى بكاء و ندبا وعزاء أو هو تصوير حزن الشاعر لموت إنسان و استثارة نفس الحزن في السامع و القارئ.

العصر الإسلامي

إن المقصود بعصر صدر الإسلام هو تلك الفترة الممتدة من بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر أيام الخلفاء الراشدين، و التي انتهت بمقتل أمير المؤمنين خليفة الإسلام والمسلمين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عام ٤٠ من الهجرة، و ظل الرثاء غرضاً شعرياً في ذلك العصر، إلا أن العقيدة الجديدة أدخلت عليه بوضع، فنرى الرائي لا يذكر ما حظره الإسلام من المعاني المتعارضة مع أمر الله به من الصبر والإيمان بقضاء الله تعالى، كما كانت مراثي شعراء الرسول تتضمن معاني الجهاد والإشادة بالبطولة والشهادة في سبيل الله، و تتضمن أحياناً هجواً للمشركين و قتلاهم كما يقول الدكتور شوقي ضيف "لقد كان العربي في الجاهلية يعد سفك الدماء

حسنة كبرى من الحسنات فجاء الإسلام محرمًا للدماء رافعًا لما كان منها القديم، كما رفع كثيرا من المآثر الجاهلية، وإقام مكانها مآثر جديدة من العدل والتقوى والزهد في الحياة، وإخلاص الوجه لله، وهذه المثالية الجديدة كان لها شأنها في الرثاء فقد أخذت تحل فيه صفات لم يكن العربي الجاهلي يعني بها ولا يفكر فيها¹⁰. فنرى الروح الدينية في جميع المراثي التي قالوها الشعراء الإسلاميون في هذا العصر.

الروح الدينية في اتجاهات رثاء الرسول والخلفاء الراشدين

كان فقد الرسول قمة الحزن عند المسلمين و فزع الصحابة لهذا النبأ المفجع، وكاد عمر بن الخطاب أن لا يصدق، لولا أن رده أبو بكر إلى صوابه وتلى عليه هذه الآية " إنك ميت وإنهم ميتون " ¹¹. و خرج الصحابة يصلون عليه ويشيعون إلى مثواه العطر بقلوب واجفة وعيون باكية، و يقال إن ابنة فاطمة كانت تراثيه و تقول:

اغبر آفاق السماء وكورت
شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبي كتيبة
أسفا عليه كثيرة الرجفان¹²
و ما أبدع قصيدة رثى بها حسان وفيه يقول:

بطيبة رسم للرسول ومعهده
منير وقد تغفو الرسوم وتعهده
ولا تمنحى الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد¹³

و وقعنا على شعر كعب بن مالك رضي الله عنه يرثي النبي ﷺ و كان المصيبة قد عقدت لسانه فكادت تصيب شاعريته بالجفاف ولكنه رثاه على كل حال، فقال:

يا عين فابكي لدمع ذري
لخير البرية و المصطفى
وبكي الرسول وحق البكاء
عليه لدى الحرب عند اللقاء¹⁴
و وقعنا أيضا على مرثية صفية بنت عبدالمطلب ترثي الرسول الله صلى الله عليه وسلم:
ألا يا رسول الله كنت رجاءها
و كنت بنا برا و لم تك جافيا¹⁵

و أول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي تولى السالطة الإسلامية من بعده، و أدى دورا حاسما في توحيد المسلمين، و دفع الفتن الداخلية وخارجيتها، و أنقذ الأمة الإسلامية من جميع الشر و الفتن بأحسن طريقة، و عندما توفي في السنة الثالثة للهجرة، بكاه كثير من الشعراء و فيه يقول حسان راثيا:

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أعلاها وأعد لها
إلا النبي و أوفاهما بما حملا¹⁶

و خلفه عمر، فملاً الدنيا بعدله و زهده ولكنه لم يستطع أن يقنع مجوسيا و طعنه أبو لؤلؤة المجوسي طعنة مسمومة و هو قائم يصلي في المحراب، فبكاه المسلمون و أبوه تأبيناً رائعا، و من رائع ما قيل فيه من رثاء قول جزء بن ضرار الشماخ:

جزى الله خيرا من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

فمن يجر أو يركب جناحي نعمة ليدرك ماقدمت بالأمس يسبق¹⁷

و خلف عمر عثمان، وكانت في عهده أول فتنة في الإسلام، إذ ثارت به طائفة من شذاذ العرب وما زالوا بي حتى قتلوه وهو يتلو القرآن الكريم فقال حسان:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسييحا وقرآنا¹⁸

و من الأمثلة على ذلك قول أيمن حرير:

ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ضحى وأي ذبح حرام لهم ذبحوا¹⁹

و هذه ليلى الأخيلى أشعر النساء بعد الخنساء ترثي عثمان بن عفان:

أبعد عثمان ترجو الخير أمته وكان آمن من عيشى على ساق

خليفة الله أعطاهم و خوّلهم ماكان من ذهب جوم و أوراق²⁰

رثاء الأهل والأقارب والأصدقاء في العصر الإسلامي

و من المعلوم أن العصر الإسلامي مازال يشهد الحروب والمعارك، فنجد حظا وافرا من المراثي يرثي المسلمون شهداءهم من الأهل و الأقارب والرفاق، ويكي المشركون أيضا، فتقول امرأة من بني جشم ترثي أخوين لها أصيبها يوم حنين:

أعيني جودا على مالك أعيني جودا على مالك

وكذلك نجد متمم بن نويرة و كان شاعرا معروفا من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام، قتل أخوه مالك في حرب الردة، فرثاه رثاء حارا، و ظل يبكيه حتى أبيضت عيناه من الحزن، و حتى أسخط عمر بن الخطاب على ماكان من قتل خالد بن الوليد له وصار ندبه لأخيه ضرب الأمثال و من أروع قوله فيه:

لقد لامني عند القبور على البكاء صديقي لتذراف الدموع السوافك

يقول: أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكاك²²

و من الأمثلة على ذلك قصيدة نهشل بن جرى يرثي بها أخاه مالك و كان قد قُتل بصفين ومن قوله

في إحداها:

أناس صالحون نشأت فيهم فأؤدوا بعد إلف واتساق²³

وكذلك الحرث بن هشام يبكي أخاه أبا جهل:

ألا يا لهف نفسي بعد عمرو وهل يغني التلهف من قتيل²⁴

و وقعنا على مرثية أبي زبيدة في أخيه الحلاج فقال:

إن طول الحياة غير مسعود وضلال تأميل نيل الخلود²⁵

و كان الأسود بن عبدالمطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده يوم بدر فيبيكهم و هو يخاطب امرأة تبكي على بعير لها أضلته، قال: فذاك حين يقول الأسود:

أتبكي أن يضل لها بعير وتمنعها من النوم السهود²⁶

وكذلك وجدنا النابغة الجعدي يرثي إبنه له اسمه محارب و يذكر أخاه (أخا للنابغة) اسمه وحوح، و في ذلك يخاطب زوجته:

ألم تعلمي إني رزئت محاربا فمالك، بعد اليوم خير ولا ليا²⁷

و إذا طالعنا وجدنا هظا وافرًا في نذب الشهداء المسلمين وتأينهم حتى لو أراد أحد أمكن له الجمع ديوان كبير من الشعر الحزين المتفجع في بدر واحد خاصة.

فهذا الشاعر كعب بن مالك أحد أبرز الشعراء الثلاثة الإسلاميين، يبكي حمزة بن عبدالمطلب وقتلى أحد من المسلمين رضي الله عنهم، بقصائد، منها:

نشجت وهل لك من منشج و كنت متى تذكر تلجج²⁸

و هذا حسان بن ثابت الأنصاري الصحابي و شاعر النبي صلى الله عليه وسلم، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، و من أروع قصائده التي رثي بها حمزة بن عبدالمملك رضي الله عنه و فيما بعض أبياتها:

أتعرف الدار عفا رسمها بعدك صوب المسبل الهاطل

بين السرايح فأدانة فمدفع الروحاء في حائل²⁹

و قال حسان بن ثابت يبكي قتلى بئر معونة و يخص المنذر بن عمرو رحمه الله تعالى:

على قتلى معونة فاستهلي بدمع العين سحًا غير نزر³⁰

و هكذا يبكي سعد بن معاذ في بني قريظة، ويذكر حكمه فيهم فيقول:

لقد سجمت من دمع عيني عبرة وحق لعيني أن تفيض على سعد³¹

و من الرثاء الجيد ما قال حسان بن ثابت يرثي أصحاب مؤتة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال:

تأوبني ليل يثرب أعسر و هم إذا ما نؤم الناس مسهر³²

و هذا طبعي أن يحس الإنسان أكثر ألم ويعاني من أعظم مصيبة حين يكون غريبا عن وطنه و أهله و أقاربه و تحين ساعة الموت و من خير صور الألم لذلك مالك بن الربيع الذي غزا في خراسان فلما نزل به الموت ناح على نفسه قائلا:

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بجنب الغضا أزعج القلاص التواجيا³³

و في قصيدة أخرى يقول:

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى و أصبحت في جيش ابن عفان غازيا
لعمري، لئن غالت خراسان هامتي لقدكنت عن أبي خراسان نائيا³⁴

الخلاصة

هذه بعض النماذج لاتجاهات الرثاء الإسلامي التي تطورت في العصر الإسلامي و مازال العصر الإسلامي خاليا عن خراب المدن لأن هذا العهد كان عهد قوة و فتح للأقاليم المعادية للإسلام لتحطيم رؤوس الكفر فلذا لم نطلع على مراثي الشعراء فيها. وكشفت الدراسة أن أنواع الرثاء لم تتغير عما عهدته في العصور السالفة فإنتاجات الشعراء محدودة إلى ألوانه القديمة المروجة من الرثاء للنفس والأهل والأقارب والعلماء والأصدقاء والملوك ورثاء دعابة لجماد أو حيوان ظاهرة الألم وغايته الضحك والترويح عن النفس ، وحديث عن نكبات المدن. وأوصلنا البحث إلى أن الرثاء لم يختلف في محاوره ومحتوياته الأساسية ، فعنصر الحزن والبكاء والألم ، والحكم المستمدة من هذا الجو المشحون بالعبير، وتأبين المتوفى، والدعاء له، والحديث عن مصائب الناس في دهورهم أمور ألفها الشعر العربي وسيظل يألفها ما حنت البشرية إلى أحبائها الذين تفقدتهم.

الهوامش

- 1 - ابن منظور، ابوالفضل، جمال الدين محمد بن مكرم، الإفرقي، المصري، لسان العرب، دارالمعارف، القاهرة، ١٩٩٢م ، ج: ٥، ص: ١٣٨.
- 2 - الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٣٠١هـ، ج: ٢، ص: ٢٧٣.
- 3 - ابن فارس، زكريا، ابوالحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، دارالفكر، بيروت، ١٩٧٩م، ج: ٢، ص: ٤٨٨.
- 4 - لسان العرب ج: ٥، ص: ١٣٥-١٣٧.
- 5 - الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ت: عطار، مادة "رثاء"، دار العلم للملايين، بيروت، ج: ١٤، ص: ٣٠٩.
- 6 - السيوطي، جلال الدين، عبدالرحمن، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية، بيروت، ج: ٢، ص: ٤٩٩.
- 7 - احسان عباس، شعرا الخوارج، دار الثقافة، بيروت، ص: ٨٠.
- 8 - الدكتور عفيف عبدالرحمن، الشعر و أيام العرب في العصر الجاهلي، دار الأندلس، ١٩٨٤، ص: ٢٨١.
- 9 - الخفاجي، محمد عبدالمنعم، الشعر الجاهلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٦م، ص: ٢٤٧.
- 10 - ضيف، شوقي، سلسلة فنون الأدب العربي، الرثاء، دار المعارف، القاهرة. ، ص: ٥٦.
- 11 - سورة الزمر: ٣٩: ٣٠.
- 12 - الرثاء، ص: ٣٥.
- 13 - ناصيف، أميل، أروع ما قيل في الرثاء، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٦م ، ص: ٢٣.

- 14 - الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأموي القرشي، كتاب الأغاني، دار الكتب، القاهرة، ج: ٢١، ص: ١٤٣.
- 15 - بديوي أنس، روائع الشعر المملوكي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج: ٧، ص: ١٣.
- 16 - حسان بن ثابت، الديوان، دار المعرفة، بيروت، ص: ٨٣.
- 17 - كتاب الأغاني، ج: ٩، ص: ١٥٩.
- 18 - ضيف، شوقي، الرثاء، ص: ٥٨.
- 19 - ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص: ٥٩، دار المعارف، القاهرة.
- 20 - ابن قتيبة الدينوري، محمد بن عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، ج: ١، ص: ٣٦٩، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.
- 21 - ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، ج: ٤، ص: ١٢٨، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨ هـ.
- 22 - أروع ما قيل في الرثاء، ص: ٢١.
- 23 - تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص: ٧٥.
- 24 - فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ج: ٢، ص: ٢٩٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١ م.
- 25 - نفس المرجع، ج: ١، ص: ٣٤٣.
- 26 - السيرة النبوية، ج: ٢، ص: ٢٩١.
- 27 - نفس المصدر، ص: ٣٩٧.
- 28 - نفس المصدر، ج: ٣، ص: ١١٠.
- 29 - أروع ما قيل في الرثاء، ص: ٢٣.
- 30 - السيرة النبوية، ج: ٣، ص: ١٦٩.
- 31 - نفس المصدر، ص: ٢٦٣.
- 32 - نفس المصدر، ص: ٢٦٣.
- 33 - القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، ج: ٣، ص: ٢٦٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦ م.
- 34 - ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، ج: ١، ص: ٣٩٤.